عز الدائم

قصة

بقلم يوسف أحمد المحمود

« وماذا سنتعشى هذه الليلة ، يا أماه ؟ »

سؤال ... كنا نستقبل به ، كل مساء ، رجوع امي عن التنور ، وعلى رأسها طبق القش المزركش ، وقد صففت عليه الارغفة بتزاحم في وسطه ، وبانفراجة بسيطة بين كل رغيف ورغيف في أطرافه ، كأنهـا « اوراق اللعب » في يد مقامر ماهر ، ومن ورائها الكلب ، طاويز ، يهز بما تبقى من ذنبه، ويدلع ما استطاع من لسانه ، لا ندري أتحية لنا ، أم لنيل نصيب اوفر من الأرغفة ..!

« عز الدائم — ... ألا تعرفان ، ماذا سنتعشى ؟ » وما تكاد تلفظ هذا بنبرة فيها كل ما يعبر عن تضايقها بهذا السؤال ، وعن اسفها لدوام هذه الحال ، حتى يثب اخي الى صفيحة عتيقة من التنك، فيضعها قرب الحائط ويصعد عليها ، متناولاً بكلتا يديه ، وبحذر بالغ ، ذلك « البرش » الحالك السواد ، لما تراكم عليه من الدخان في كل شتاء ، ولما لصق به من الغبار الذي يتصاعد اليه من ارض البيت أو يهبط عليه من السقف ، وقد علق من اذنيه بحبل قصير ، في « ود » من الخشب الصلب اثبت في ناحية من الحائط. بينما أشب انا الى صحن ، اضع فيه قليلاً من الماء ، وذرة من الملح، ثم نصب فيه زيتاً الى حد معلوم متفق عليه ، ونجلس نحن ، الثلاثـة ، من حوله ، نغمس فيه اللقم ، بحماس ، لا يخفف منه دعوة امي إلى التأني ، ولا تحذيرها من غمس اصابعنا بالزيت لتبتل اللقمة جيداً ، وليعلق بها شيء من الملح !

وكانت امي تنسى أحياناً ، ان تضع الماء بجانب الطبق ، وقد اعطش انا ، او يعطش اخي ، ولكن واحداً منا ، لا يتطرق الى الماء بذكر ، ما دام ذلك قد يكلفه القيام الى « الجرة » الموضوعة الى يمين الباب من الخارج. اما اذا عطشت امي — .. او اذا ذكرت الماء، فتقع « المعاندة » بين اخي وبيني فهو لا يأتي بالماء ، لانه الولد الكبير ، وله مقام الأب في البيت ... وأنا لا آتي به ، لأني صغير دون حد التكليف في مفهومي . وعندئـذ — لا تحل القضية الا « بالدور » — أي ان اقوم مرة ، ويقـوم اخي مرة اخرى — ... ولكن من الذي يقوم اولاً ؟ وهذه قضية ثانية ، لا تحل ايضاً الا بالقرعة !

وهنا تبدأ مشكلة جديدة، هي مشكلة الرغيف الخاص الذي يختاره أحدنا بعد ان يكدس الأرغفة كلها فوق بعضها ، ليرى ايها اكبر ، ثم يروزهـا ليرى ايها اثقل ، ويتفحص اللون الذي يعجبه ... وبعدها يصير الرغيف، رغيفه ، فلا يأمن وضعه على الطبق ، ثم يتناول منه لقمة بعد لقمة ، كما تفعل الأم ، وكما علمتنا أن نفعل ، وإنما يضعه في حضنه لئلا يمسه الثاني !

هذا الرغيف لم يعد شيئاً آخر ، وانما هو ذات الواحد منا ، فيحمله واحدنا معه الى الجرة ، لا ليأكل منه في رواحه ، ومجيئه وحسب ، وانما يحفظه من الآخرين . وقد يحدث ان يختطفه طاويز من يد أحدنا ، وهنا تقع شماتة الثاني ، ويقضي كل الليل في الرقص ... والتصفيق ، وترديد : أكل رغيفـه طاويز ... أكل رغيفه طاويز . بينما يكون صاحب الرغيف المخطوف ، ذليلاً .. لا يتصاعد من فمه إلا تهديد طاويز بالقتل ، والثأر للرغيف !

واذا بقي من هذا الرغيف شيء ، فان احدنا يحمله طوال السهرة، حتى إذا ما حان ميعاد نومه ، ذهب إلى الفراش ، فأطبق على البقية بكلتا يديه، كما يطبق النوم على كلا جفنيه .

وفي بعض الأيام ، كانت أمي تذهب لعمل ما ، قبل أن نستيقظ .. وقد تبقى حتى الظهر ، ولشد ما تدهش إذ ترجع ، وترانا ، وقد أخذ كل منـا بشعر رأس الثاني ، يشده تارة ، و « ينطحه » تارة اخرى، إذ يتهم كل منا أخاه ، بأكل ما اطبق عليه يديه ، بينما قد تكون أمي هي التي فككت عنه أصابعنا ، بعد ان استغرقنا في النوم ، حتى لا يتسرب النمل الى الفراش ، أو تكون القطة قد أكلت ما خرج من بين الأصابع ، ولكن من منـا يقتنع ، بأن آثار النتش ، هي آثار انياب القطة، وليست آثار اسنان احدنا!.

وكثيراً ما كان ينتهي العشاء ، ولا ينبس واحد منا ببنت شفة ، إلا لوم أمي لأخي ، لأنه لم يذهب مع أولاد الحارة إلى « المزلقان » ويأتينا بشيء من « الجرجير » الذي ينمو في ذلك المكان الذي كثر به مـاء الشتاء ، لنتناوله مع هذا العز الدائم ، و « نرطب به على قلوبنا » كما تقول امي .

بينما في أحيان أخرى تقص علينا هجرة أبي ، وتعدنا بتبديل هذا اللون من الطعام عندما سيرجع بالمال الكثير ... وأحياناً تقرب الوعد ، فتحدثنا عن البقرة « حمورة » وتعد الأيام الباقية لولادتها .. واضافة اللـبن ... والحليب ، والزبدة .. والمتبلة ، إلى هذا الطعام الذي نأكله كل مساء — بل في كل مرة نأكل فيها ..!

وفي بعض الليـالي ، قد يكون لدينا شيء من قرون الخرنوب ، التي توزعها ، أم محمود ماربة ، على صبيان الحارة ، كلما عادت من زيارة أهلها الذين يملكون اشجاراً كثيرة ، لهذا النوع من حلوى القرى ، في قرية مجاورة ، فنأخذ بقضمها ، ويظل اللوك والمص ، حتى يخرج العسل ، ثم نبتلع ما بافواهنا بشهية مثيرة . وأما البذور القاسية الصغيرة ، فنضمها الواحـدة إثر الاخرى ، على حجرة مختارة من النار « لنحسب » للحبالى من نساء القرية . فاذا « طقت » — أي أحدثت صوت انفجار ، صفقنا ، وقلنا : « صبي .. صبي .. وحياة النبي ! » واذا « فشت » أي كان صوت الانفجار غير مسموع ، قلنا باشمئزاز : « بنت ... بنت ... لعنة الله .. عليها !»

ثم يأتي دور البقرة التي نضع لها الرهان ، فـأخي يريد ان تضع «عجلة» نجمة ، محجلة ، وأنا اريد أن تضع عجلا اسود، أبهماً في جبهته فقط! ويكفي هذا لأن نتوصل الى شجار طويل عريض ، لا يفكنا منه إلا ربط أمي لنا بالحبل ، إلى جانب « ساموكين » من العواميد الخشبية التي يقوم عليها سقف البيت ، وعندئذ لا يبقى لنا من وسيلة للاشتفاء من بعضنا ، إلا بالبصاق لأن افواهنا تظل حرة ، تقول ما تشاء ، وتلقي على الثاني بما تشاء!

وقد تقضي أكثر من ليلة سهراً ، عناداً ، انا وأخي ، نستبق النظر إلى ابن البقرة . ولكن الولادة تأتي مفاجأة ، فلا نستيقظ إلا على صوت أمي يناوبنا حسب وصيتنا لها : ما – ما.. ماما... أبو مزيد .. أبو الطاهر.. اجلسا ..!

وبلا تردد نرتمي من المرزال صارخين: ماما – ماذا وضعت البقرة ؟

وهنا تبدأ مشكلة جديدة لعينة ، فاذا كسب أخي الرهان ، وأقبل علي ليضربني مئة كف وكف ، ويضع على رأسي الحذاء ، فأني اخرج الى الدار وأرجع بالحجارة ، لرجم البقرة التي أوقعتني بهذه الخسارة الفادحة المشينة . واذا كسبت انا الرهان ، وكان هذا نادراً ، ركضت لأخبر كل الجيران بهذا الربح المدهش ، بينما أخي يهاجم البقرة بالسكين ، إذ لا يجوز أن تلد الا عجلة نجمة محجلة ، نكاية بي . واذا حاولت امي اقناعه ، بعد أن تشد يديه بالوتاد ، بأن البقرة ليس بيدها ، ولا برجلها ، من الامر شيء ، اتهمها بأنها هي التي غيرت نوع المولود لترضيني أنا ... ويعلل ذلك بأنها تحبني اكثر منه . وعندئذ يقسم الف يمين ويحلف ، بأنه سيذبحني انا !

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل ان احدنا يصير مسؤولاً عن المولود الذي يأتي حسب رغبته ، ويكون مكلفاً برعيه وبجمع الحشيش له ، فيما بعد وليس للثاني اي التزام نحوه ..!

وخطر لنا ذات مرة ، ان نحسب لامي ، كما نحسب لغيرها من النساء . ولكن الطريقة التي كنا نعرف بها الحبالى من نساء القرية ، لم تعلمنا بأن أمي حبلى مما دعانا لسؤالها : لماذا لا تحبلين ، يا اماه ، وتضعين لنا ببو ، كما تفعل نساء القرية ؟!

وننتظر الجواب بلهفة ، ولكنها كانت تصرخ بنا ضاحكة مستنكرة : أما تستحيان ... كيف أحبل ، وأبوكما غائب ، ما لكما ولهذا السؤال ؟

وبشيء من الحذر والدهشة والشوق للمعرفة ، نمضي في الاستفسار : ولماذا تحتاجين ابي ، فان كل النساء القرية يلدن ، وأنت ، ألست امرأة مثلهن يا اماه ؟

وتشعر بأنها تساق الى مأزق حرج من هذين الطفلين اللذين يلحان عليها بالحبل ، والطفل قاضي تحقيق بريء يسأل ، ويستقصي بالاسئلة ، لا ليتهم، ولا ليدين بالإتهام ، وانما ليعلم ، وليزيد فيما يعلم ، فتقول ببساطة وبراعة : انني لا أرغب بالحبل ... في غياب ابيكما ... إذ من يأتيني بالداية – القابلة، ومن يأتي « بالحلوان » ويوزعه على القرية ، ومن يأتي « البيو » بالامتعة .. والاقمطة ، وما الى هنالك ؟

وفي ليال كثيرة ، لا يكون لدينا فيها شيء ، وعندئذ تنطلق امي لتحكي لنا ، قصة « شطارة الجحيش » ، والدبة التي قتلت ابنتها ، وقصة الجدين ، قيمير وصيبيح ، وقصة ابو حميدان والعفريت .. وأبو حميدان والملك ... وأم حميدان وليلة القدر ، وأبو حميدان والقدح . إلى ماهنالك من القصص والحكايا و « الحزازير » التي نستمع اليها بشوق وبلذاذة بالغة .

وقبل ان تغتمض جفوننا بالنوم كانت امي تلقننا هذه الصلوات لنرددها كل ليلة : يا عزيز ، يا جبار ، يا خالق الليل والنهار . ومسير الفلك في البحار ، أرجع الأب ، بالسلامة ، للأم وللبنين الصغار !

وفي صباح يوم بارد ماطر ، أعطيت في كأس بيضاء ، سائلاً ذا لون ذهبي فاتن ، وأخذت بتقليد رجل ظريف الشوارب ، معرق الوجه ، متعب الملامح ، ناعم السمرة ، وفي نظراته بعض الخيبة ، « متربع » على جلد خروف بجانب الموقدة ، بأن اضع في فمي لقمة ، واحتسي وراءها شيئاً من هذه الكأس ، فتذوب اللقمة ، محدثة حلاوة لذيذة ساحرة ، وتساعد اللوك بقدرة عجيبة . وطلبت المزيد مرة وثانية وثالثة، فربت ذلك الرجل على شعر رأسي الكثيف الوسخ ، وقال : أتحب الشاي، يا حمروش – الف صحة ، يا بابا ؟

فحملقت اليه باستغراب وجل، ثم رجعت الى «شرق» ما بقي في الكأس من حثالة ، دون ان أفوه بكلمة !

ولكن امي الجالسة الى يسار ذلك الرجل قالت : قل له .. الله يطول عمرك .. ويديم جنابك ... يا بابا .

وأعدت النظر الى بابا ، لأرى به ذلك الرجل الذي كانت امي تحدثنا عنه طوال ثلاث سنوات ونصف السنة ، ثم ابتسمت ابتسامة .. لا ادري ماذا كان فيها ، احلاوة ذلك الشاي ، ام روعة تحقيق احلام الام برجعة الاب لها وللبنين الصغار ، ورميت برأسي الى ركبته القريبة مغمغماً جملة امي ، بعد ان حرفتها بلغتي ، ولكن رأسي ما كاد يستقر على تلك الركبة ، حتى شعرت بيد صغيرة تجرني من شعري ، وفم صغير ، يقول : ولك .. هذا ابي انا .. اذهب من هنا . ثم تبع ذلك شتم لي ولأبي ، ودفعة قوية القتني في « الصيباط التحتاني » أي القسم الثاني من البيت ، الذي تربط فيه البقرة !

واستدركته امي قائلة : ماما – أتضرب أخاك ، بحضرة بابا؟

– ولكن لماذا يضع رأسه على ركبة أبي ، اما يكفيه شرب الشاي؟

– أليس هو اخاك ، وهذا ابوك وابوه ؟

– لا .. ليس هو أخي .. وليس هذا أباه ، وانما هو ابي وحدي ، وجاء فالقى بنفسه في حضنه .

وضحك ابي .. وضحكت معه امي وهي تقول :

– ولكن من هو ابوه ؟

– ابوه التوتو والشحاد .

فلطمته بتعجب صارخة : ملعون ..! أتقول هذا لبابا ؟

ومرة ثانية ضحكا بشدة ، وقال أبي : ما رأيك بهذا القول ؟

فاجابته بضحكة ، لا أطمع بالزواج ، إلا لأرى إن كنت ستحظى بمثلها من زوجتي: رأيي مثل رأيك .. أطفال ..! فاستدرك أبي .. ولكنهم قد يقولون الحقيقة . ومرة ثالثة ضحكا . والتفتت الي منادية : تعال ، يا حمروش ، تعال، يا صغير... وقبل يد بابا .. لنرى شطارتك .

ولكن اخي حال بيني وبين المجيء، إذ لا يجوز ان اقترب من أبيه وامه ، بأي شكل من الاشكال ، وأمرني بانتظار الكلب طاويز، لأذهب معه لأنه هو أبي ، حسب اتهامه ، بالرغم من معارضة الأب والأم، وبالرغم من بعض النقود التي أعطيت له ، ليتراجع عن اتهامه ! بينما أنا ظللت واقفاً أسمع .. واري ، ولكني لا افهم شيئاً، كأنني أمام استاذي في اللغة الاجنبية التي اخترت التخصص بها هذا العام !

لست ادري ، كم سنة مرت ، على تناولنا الشاي بالخبز كل صباح ، بدلاً من العز الدائم الذي صرنا ، لا نتناوله الا قليلاً ، واكثر ما يكون ذلك في وجبة الظهر ، إذ نأتي من الكتاب ، وهو عبارة عن تعلم القرآن ، تحت شجرة كبيرة ، قريبة من القرية ، ومن نبع الماء ، يجتمع اليها صبيان القرى المجاورة في فصل الصيف ، فأجد امي متأخرة بالطبخ ، فآخذ رغيفاً ، أدهنه بالزيت وافرد عليه الملح ، واخف بالعودة ، لأشبع من اللعب مع الرفاق ، قبل أن يعود « عمي الخطيب » ذو اللحية المرسلة ... وذو العصا الطويلة الغليظة ، هذا العم الذي كان اكره ما يكره ، هو ان يرانا نلعب ، وأشد عقاب ناله من عصاه على هذه الجريمة – جريمة اللعب !

اجل ..! لم ادر كم دامت هذه السنون . ولكني ادري بأن سؤال : « ماذا سنتعشى هذه الليلة ؟ » قد عاد يتكرر كل مساء . وليس من قبل أخي ، ولا من قبلي انا ، وانما من قبل الاب !

وبنفس اللهجة السابقة ، كانت امي تجيب : « عز الدائم – ألا تدرون ماذا ستتعشون ! » وعندئذ أخف الى «الحاكورة » الصغيرة المجاورة للبيت، التي استرجعها أبي بالثمن الباهظ من مالك القرية ، الذي اغتصبها ابوه من جدي ، لآتي بأوراق البصل الخضراء ، فنضعها على الطبق ، ونأخذ بلف الورقة على اللقمة ، ثم نغمس طرفها بالزيت ، ونسمي ذلك « مزنرة ».

كان ابي في هذه السنوات ، يحترف السكافة البسيطة ، التي تقتصر على تصليح الأحذية أو صنعها جديدة ، لأهل القرية، ولبعض القرى المجاورة، وينتظر الموسم لينال أجر ما يعمل ، وقد يدفع اليه ، وقد يتأطل باكثره ، لأن البؤس قد خيم على معظم سكان تلك المنطقة . وكان كل عملنا ، ان ندخل الى الغرفه ، فنقتل له الخيطان ، ونشمعها ، تارة ، وتارة نسدق « الباصول » ليلزق به « البطانة » على الجلد، وتارة ثالثة « نقوم » المسامير العتيقة ، او المسامير الجديدة الملتوية . ولكن ما كانت الفرصة تسنح لنا ، حتى نخطف من المسامير الجديدة اضعاف – أضعاف ، ما قومنا من المسامير العتيقة ، ونطير الى البيادر – ملاعب صبيان القرية ، حيث نشكك تلك المسامير في الارض الصلبة ، بأشكال هندسية نخترعها العبقريات الصبيانية ، ونفاخر بذلك صبيان الحارة ، الذين كانوا في الماضي، يفاخروننا بالاطفال الذين تلدهم امهاتهم ، ويحملونهم امامنا ، وعندما تشتد المعركة بيننا وبينهم ، لا يجيبون على الحجارة التي يقذفهم بها أخي ، إلا بهذه المآخذ التي يرفعون بها اصواتهم ، وهم يهربون للاختباء : « آه – يا اولاد شحادة التبن – .. ما عندكم حمار .. ولا خواريف ، ولا جدايا صغار .. امكم ما لها رجال .. ولا لكم عم ، ولا خال ..! » ولكن ذلك ما كان يوازي سبي لهم ، فانا سباب من الطراز الأرذل ، لا تجاريني في هذه الموهبة أية امرأة في العالم . ولي طريقة ناجحة في السباب ، ليس في كلماتها المبتكرة القذرة وحسب ، وانما في السرعة التي أقذف بها هذه الكلمات – السرعة التي لا يجد خصمي سبيلاً معها للرد علي ، سرعة الانطلاق التي يعجز عنها المدفع الرشاش أو « مبرقة» مورس في الأخذ والارسال !

لقد مرت كل هذه السنين ، يا اعزائي ! سنون عز الدائم الأولى ... وسنون الشاي مع الخبز . وسنون عودة العز الدائم مع أوراق البصل ، ولكن هذه ذهبت بأخي الى عالم يدعون ضريبة الدخول اليه ، « بالموت » ولست ادري إن كان عالماً حافلاً بما هو أفضل من عز الدائم ، ام هو عالم يحسدنا اصحابه على عز الدائم !

لقد مرت كل هذه السنين ، يا اعزائي ! وصرت الآن ، في مطلع السنة الجامعية ، اخف للالتحاق بكليتي ، وما ان اصل الى اقل من نصف الطريق حتى تتعالى من حولي هذه الأصوات : « زيتك يا ابا الزيت .. زيتك يا ابا الزيت .. زيتك يا ابا الزيت .! » فيطير من جفني ذلك الوسن ، الذي امتنع عني طوال الليل ، لأني لا استطيع النوم في الليلة التي انوي السفر في صباحها ، وانظر الى تنكة صغيرة ، قد انتشر الصدأ الأصفر الغامض الخشن في نواحي كثيرة منها ، وارفعها من بين قدمي اللتين لم تستطيعا منعهما من التقلقل ، ولم تحرساها من « الانفزار » وتسرب الزيت ..!

واعيد النظر .. الى ذلك الزيت وهو يخرج دفعة اثر دفعة مجارياً بذلك سرعة السيارة ، وكأن الواجب لا يدعو إلا حضرته ، ليجاري تلك السيارة ... وانظر اليه ، وكأنه دم قلبي ينزف الى غير رجعة !

واضع اصابعي على مكان تسرب الزيت ، ولكن سرعة السيارة ، لا تدع لأصابعي الثبات . وقد اتقرب بهذه السرعة التي توصلني الى النبك، فانزل الى الماء الجاري، والقي بتلك التنكة، بضع غرفات بيدي الكبيرتين، فيرسب الماء ... ويتسرب بدلاً من الزيت !..

وفي ظهر كل يوم يحين ميعاد الوجبة الوحيدة التي تعودتها ، منذ ان صرت طالباً ، فاخف إلى غرفة أضيق من صدر الكافر ، واشد ظلاماً من اعماق القاتل ، وارطب من نفس الخائن ، في الأحياء الفقيرة البعيدة ، من المدينة . وعلى طاولة صغيرة ، حشدت عليها الكتب والجرائد والمجلات .. وماكينة الحلاقة وعلبة الشفرات ، وفرشاية الاسنان والحذاء ، والكلسات ، والمحارم المتسخة ، والمرآة التي كسر نصفها الاسفل ، وأشياء أخرى يطول بها العد ، قد وضعت كلها عليها ، ليس للزينة ، وانما لأنه لا يوجد مكان آخر في الغرفة لتوضع فيه .

على هذه الطاولة ، اضع رغيفين من الخبز، اصطحبتهما من الفرن ، والى جانبها صحن من الألمنيوم الخشن ، القيت فيه اربع ملاعق من الزيت فقط وذرة من الملح الأبيض الناعم ، تتماوج من فوقها ، بانتظار الماء ..!

ومرت السنون ، يا اعزائي ... ولكن بعيداً عن ذلك البيت الخالي من أخي ... وعن ذينك الابوين البائسين، وعن المزلقان الذي ينبت الجرجير ليرطب القلوب المحروقة ، وعن الحاكورة التي ذهبت بها ايضاً نفقة سنة واحدة فقط ، من نفقات التعليم ، وعن البقرة التي تلد العجول ، وتطعم اللبن والزبدة ... ومرت السنون – ... ولا تزال تمر – ... ولكن ليس امامي منها الآن ، إلا عز الدائم – الخبز ، والزيت بالملح والماء ..!

كلية الآداب – دمشق

يوسف أحمد المحمود

صدر حديثاً

في سلسلة كنوز القصص الانساني العالمي

امرأة ورجلان

لليونارد فرانك

مأساة مؤثرة من مآسي الحرب ، ترجمت الى كثير من اللغات الحية واخرجت على المسرح والشاشة . وهي تعتبر نموذجاً من أروع نماذج الادب الالماني الحديث .

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرة

دار العلم للملايين